المصـــــدر : الوطن السعودية
التـــاريخ : 20-10-2006 العـــدد : 2212
الصفحـات : 12 المسلسل : 81

معركة على سطح الغلاف

سعود اليلوي*

"لقد لبسنا قشرة الحضارة والروح جاهلية" كتب نزار هذا المقطع الشعري ومضى، لكني تذكرته حينما ذهبت مؤخراً إلى إحدى المكتبات الشهيرة للبحث عن بعض الإصدارات الجديدة، وبعد استعراض لأقسام المكتبة تذكرت أيضاً قصص (عبده خال) الشهيرة: ليس هناك ما يبهج! وخصوصاً بعد مروري بقسم الأدب، الرواية تحديداً، حيث سألت عن عدم وجود "بنات الرياض" التي سبق أن فسحت، فأجابني المشرف على القسم بكلمة لا أحبها: مُنعت! ولم يحدد جهة المنع.

وفيما بعد أخبرني صديق بأن هذا المنع نتيجة قيام بعض هواة المنع برفع قضية ضد كاتبة الرواية (رجاء الصانع) التي دخلت التاريخ ليس من أوسع أبوابه بل من أشد مساراته ضيقاً بذكائها الذي تفوق على إبداعها. وقد سبق لي أن قلت رأيي في الرواية بأنها ليست بمستوى (الزوبعة) التي أحيطت بها معارضة أو تأييداً. فأي قارئ يستطيع أن يطرح رأياً آخر حول الرواية ويختلف مع أسلوب كاتبتها فنياً وأدبياً بأي طريقة كانت، لكن الذي لا أفهمه هو قيام بعض المواطنين برفع قضية على الكاتبة تم بموجبه منع بيع وتداول الرواية في المكتبات والأماكن العامة والمعارض المتخصصة. لا أعلم كيف يتم هذا الإيقاف- بعد أن فسحت الرواية ووضعت على رفوف المكتبات لفترة - دون حكم قضائي أو قرار وزاري من قبل الجهة المسؤولة (وزارة الثقافة والإعلام)؟! وليس لدي أي قناعة بالمسوغات التي أدت إلى مصادرة "حق" الكاتبة في وجودها عبر هذا العمل الذي هو الرابط الحقيقي بينها وبين الناس، رغم أن هذه المصادرة للحق لن تؤثر كثيراً في مسيرة التاريخ الذي يمضي قدماً إلى الأمام ولا يمكن أن يعود إلى الخلف كما يعتقد البعض. فالرواية باتت من أشهر الروايات اتفقنا أو اختلفنا حولها، وصار بالإمكان الحصول عليها بأسهل الطرق وأرخص الأثمان؛ حيث يمكن وضعها كاملة في جهاز الهاتف النقال عبر التقنية المجانية "البلوتوث"، وهذا ما يجعلنا نتساءل: أين المشكلة إذن؟

المشكلة برأيي لا ترتبط بـ "بنات الرياض" وكاتبتها بقدر ارتباطها بمشكلتين متجذرتين في ثقافتنا العربية هما: القمع والوصاية، وفي كليهما مصادرة لحرية الإنسان وحقوقه الأساسية. لكننا فوجئنا بقضية (المنع) بعد التحول النوعي الكبير الذي أحدثه معرض الرياض الدولي الأول للكتاب والذي نظمته جامعة الملك سعود برعاية كريمة من قبل خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز حفظه الله، وهذا ما يجعل هذه الخطوة غير مبرّرة لكونها تخص حقاً إنسانياً هو حق "التعبير". إذ لا أظن الكاتبة قامت بإيذاء لأحد، وأجزم بأنها لم ولن تجبر أحداً على قراءة رواياتها، كما أنها لن تقوم بإرسال الرواية عبر وسائل إلكترونية بشكل عشوائي لتقتحم حريات الناس وخصوصياتهم، لكن حرية الكاتبة التي كفلتها الدولة ممثلة بوزارة الثقافة والإعلام- من خلال فسح

"عنوان الرواية هو ما أثار حفيظة كثير من الناس، وليس القصد من هذا التعبير التقليل من شأن الكتاب ذاته بقدر ما هو حصر للمشكلة أصلاً في الغلاف الذي يعني الظاهر والسطح قياساً بالأساس والجوهر..."

الرواية والسماح بتداولها- اقتُحمت وصودرت برفع القضية بهذه الطريقة الوصائية! قد نعي ونحس ونشعر بمدى الأذى الذي تسببه مصادرة حرية الإنسان وحقوقه المكفولة قانوناً، لكننا نمارس العكس في كل وقت؛ ولذلك لا أستبعد أن هذه الشكوى (الوصائية)، المرفوعة بالوصاية والنيابة والوكالة عن المجتمع، قد آتت أكلها! وأتمنى أن أكون مخطئاً في هذا الافتراض الذي لا يتجاوز الحدس. ولذلك وجدنا محاولة إرضاء فئة معينة من المجتمع بطريقة (كبش الفداء) على حساب "حقوق المؤلف" التي هي جزء من حقوقه كإنسان والتي يفترض أن ترسّخ أكثر في جذور ثقافتنا المحلية المعتادة على ضرورة درء المفاسد من خلال عدم صيانة الحقوق، فهل وصل بنا الخواء الفكري أن يجفف (غلافٌ) كتاب الدم في عروقنا؟! لأن عنوان الرواية هو ما أثار حفيظة كثير من الناس، وليس القصد من هذا التعبير التقليل من شأن الكتاب ذاته بقدر ما

المصـــــدر : الوطن السعودية
التـــاريخ : 20-10-2006 العـــدد : 2212
الصفحـات : 12 المسلسل : 81

هو حصر للمشكلة أصلاً في الغلاف الذي يعني الظاهر والسطح قياساً بالأساس والجوهر الذي هو محتوى الكتاب، ولكن هكذا نحن سطحيون دائماً حد الإبداع، تجذبنا وتثيرنا القشور لا اللب، في ثقافة واسعة طغى عليها مبدأ التحريم والمنع فصار ينهشها بضراوة كوحش مسعور لا يدرك ما يفعل. ونتيجة انتشار وباء التحريم والمنع في ثقافتنا العربية لا يُنتظر منها أن تنتج فكراً جمعياً حراً لا يخالطه الخوف؛ لأن الخوف أصبح جزءاً أصيلاً في تكوين المنتمين لهذه الثقافة التي أصبح أول مكوناتها: الخوف!

الخوف من كل جديد، الخوف من كل فكر حر، الخوف من الخروج عن النسق، الخوف من كل شيء! وهذا الخوف (الفوباوي) هو ذاته الذي جعل فئة تخشى مسلسلاً كوميدياً موسمياً عرفناه منذ أربعة عشر عاماً باسمه الذي بات أشهر من معناه (طاش ما طاش)، هذا المسلسل الذي ظهرت بحقه الفتاوى، وكأن معضلات الثقافة أجمع توقفت على هذا المسلسل الذي قدّم فكراً نقدياً بما هو سائد فحلّ عليه الغضب.كبر طاش وكبر النقد، وكبر الخصوم أيضاً، ولكن بعد كل هذه السنين اتضح حقيقة مساهمة هذا المسلسل – الذي يتابعه الملايين– في تقديم المتعة والتنوير. ومن أغرب ما قرأت من تقليعات خصوم هذا المسلسل الجماهيري إعلان مدفوع الثمن لأحد(الدكاترة) يزكي فيه أحدَ المنتجات التي تردد أن شركته المستوردة تدعم المسلسل المدعوم أصلاً بملايين المشاهدين الذين رُسمت البسمة على شفاههم، لغة الخطاب في الإعلان المذكور مرتبكة بحيث لا يستطيع القارئ تأويله بالضبط: هل هو دفاع مجاني عن المنتج، أم تزكية للشركة، أم إعلان تحذيري ضد المسلسل حيث يذكر المعلن "أن ما أشيع من أن شركة (...) قد دعمت وآزرت وناصرت السوء المسمى طاش ما طاش، وقد تبين لي براءتهم من ذلك...". أي ثقافة هذه التي تكرر قضاياها فتدور في حلقة مفرغة ؟! لذا أتمنى ألاّ نسمع قريباً خبر منع طاش أيضاً؛ لأننا سنتذكر (دون كيشوت) ومحاربته طواحين الهواء.

---

* كاتب سعودي
skab@alwatan.com.sa